الانسجام عند علماء القرآن و التفسير

الأستاذة: جمعي فاطمة الزهراء
-جامعة الجزائر02- الجزائر.

إنَّ البحث في كيفية تماسك النص القرآني بحث بالضرورة في كيفية تناسق الآيات والسُّور مشكلة نصا منسجما وكلا موحدا على الرغم من اختلاف أسباب وأوقات النزول ، فلقد عني علماء الإسلام بالقرآن الكريم عناية بليغة لتفسير معانيه ولغاية إظهار مواطن الإعجاز فيه ، فاستثمروا العديد من الوسائل والإجراءات التي تبيّن تناسق الخطاب القرآني وانسجامه ، ليس على مستوى الآيات فحسب بل تعدَّى ذلك النظر إلى علاقات السُّور بعضها ببعض ، فواتحها بخواتمها ، التفسير اعتبارا لمجريات السياق.. وصولا إلى المعنى الكلي وموضوع الخطاب ، وسأحاول توضيح البعض منها في النقاط التالية:

1/ أسباب النزول:

لقد اعتنى المفسرون كثيرا بهذا المنحى لأنّ معرفة سبب نزول الآية يهديهم إلى سبل التفسير الصحيح لمعانيها ويدفع عنهم أوهام الخلط والضياع ، وبهذا فمعرفة أسباب نزول الآي يقارب البحث في مقتضيات السياق النصي عند النصِّيين ، وهو ما نلمسه عند **الزركشي** في تفسيره للآية الرابعة من سورة النور في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(الآية 04)

يوضح **الزركشي** في تفسيره لآيات متفرقات من سورة النور من بينها الآية الرابعة، أنَّ نزولهنَّ كان طوعا لأسباب وضرورات خاصة كانت قد وقعت وجاء الحديث عنها وتفسيرها بما يلائم السياق الزماني والمكاني ، ومن بينها نزول حدِّ القذف في رماة عائشة رضي الله عنها ، والذي تعدَّى بعد ذلك إلى غيرهم[1].

[1]- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، منشورات المكتبة العصرية ، صيد ، بيروت/لبنان ، ط01 ، 1976 ، ج01 ، ص24.

إنّ تفسير الآية الكريمة جاء حسب مقتضى الحال ومتطلبات سياق النزول ، والذي يُوجِبُ جمع صفة القذف التي اختصت بها أمُّ المؤمنين إلى المحصنات جميعا، وقد عبر عن ذلك **الزركشي** في قوله: "فمن رمى أمُّ قوم فقد رماهم ، أي رمى القوم كلَّهُ إشارة إلى التعميم"[2] ، وكما تعدى الأمر للمحصنات جميعا ، كان كذلك مع الرماة في قوله (يرمون) وهي زيادة يقتضيها السياق الزماني والمكاني ، يقول **الزركشي**:

"قد تنزل على أسباب خاصة ، وتضع كل واحدة منها مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن وحسن السياق"[3] ، وإذا كان السياق المذكور هنا يعني السياق اللغوي للسورة حسب ترتيب الآيات والمعاني ، فإن تفسيره لآيات أخرى لم يكن يخل من نظرة دقيقة لدور السياق الخارجي (الزماني والمكاني) ، والمثال الثاني يوضح ذلك:

قال تعالى في (الآية 115) من سورة البقرة:﴿ ولله المَشرِقُ والمَغرِبُ فَأينَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجهُ الله إنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(الآية 115)

يفسر **الزركشي** الآية الكريمة بقوله ، "أنَّه لو تركَ مدلول اللَّفظ على حاله دون مراعاة مؤشرات السياق الوارد فيه ، لاقتضى أن يفهم المصلي أنَّه لا يجب عليه استقبال القبلة سفرا ولا حضرا ، فيحصل الخلط في فهم الآية للجهل بأسبابها وسياقها .. وإنَّما نزلت حين صلَّى النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وهو مستقبل من مكة إلى المدينة "[4].

ويفسر **الطاهر بن عاشور** الآية ذاتها قياسا لمقتضيات السياق الخارجي بحادثة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين وخروجهم من مكة ، يقول:" فتبين أنّ الأرض كلها لله تعالى ، وأنَّهَا ما تفاضلت جهاتها إلاَّ بكونها منطقة للتقرب إليه وتذكّر نعمه ، إنَّ الآية إنَّمَا نزلت للإذن للرسول بأن يتوجه للصلاة في أية جهة شاء وإنَّمَا جاءت حسب الحالة أو الوضع الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء تفسيرها متضمنا للوضع ذاته "[5].

---

[2]- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ص25.

[3]- نفسه ، نفس الصفحة.

[4]- نفسه ، ص29.

[5]- محمد الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، تونس ، ط01 ، 1984 ، ج01، ص 282.

اتّضح إذن من خلال هذه الأمثلة وإن كانت موجزة ، وعي المفسرين بدور السياق في رصد معاني الآيات التي كانت تفسر قياسا ورجوعا لأسباب وحوادث معينة كانت قد وقعت ونزلت بسببها الآيات السابقة.

2/الإحالة:

يقوم الضمير بدور هام على مستوى النص ، والذي يتمثل في تكثيف معاني الكلام واختصارها والابتعاد عن الإطناب ، "فالأصل في الضمائر هو الاختصار"[6] ، والأمثلة على ذلك عديدة في القرآن الكريم مثل قوله تعالى في سورة القدر: ﴿إِنَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيلَةِ القَدْرِ﴾(آية01) ، يعني القرآن ، وإنَّمَا عُبِّر عنهُ بضمير متصل(الهاء) لفرط شهرته ، فهو يَدُلُّ على نفسه[7].

إلاَّ أنَّ تفسير ضمير العودة عند العلماء قد يختلف من مفسر إلى آخر ، فقد يعود الضمير إلى المحيل له الذي قبله ، كما قد تتعدد المحيلات ، وقد تختلف مواطن الإحالة الضميرية ، كما قد تُضمر الإحالة بالتضمن ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في(الآية282) من سورة البقرة:

﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَينٍ إلى أجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ ، يعود ضمير الهاء المتصل هنا إلى الدَّين[8] ، أمَّا التكرير بين تداينتم–دين ، فقد يكون معادا للدَّلالة على الضمير اللاحق في قوله فاكتبوه ، أمّا **ابن عاشور** فيرى أن الصياغة في هذه الآية إنّما جاءت على حالها لحسن النظم ولتكثيف المعاني فهو أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال[9].

وعن الإحالة الضميرية بالتضمن يذكر **الزركشي** مثالا من قوله تعالى في (الآية 32) من سورة (ص): ﴿حَتَى تَوَارَت بالِحجَابِ﴾ ، والتي تعني الشمس ، وهنا أحيل ضمير التأنيث في الفعل إلى الشمس الغائبة فَضُمِّنَ التعبير عنها لسبق ما يدل عليها وهو العشِّيُّ – أي مابين زوال الشمس وغروبها-[10] ، وكما أشرت سابقا فقد يعود الضمير على بعض ما تقدم له مثل قوله تعالى في (الآية11) من سورة النساء:

---

[6]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج 04 ، ص24.

[7]- نفسه ، ص24.

[8]- نفسه ، ص25.

[9]- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، ج03 ، ص98./ والقول نفسه ورد في الكشاف للزمخشري.

[10]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج04 ، ص26.

﴿ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ..﴾ ، فضمير الغائب هنا يعود على ما تقدم القول له في آية سابقة في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُم الله في أولاَدِكُم﴾[11].

وإذا كانت هذه الأمثلة توضح الإحالة المباشرة لضمير العودة ، فقد يُصادف المفسر ذكر شيئين ، ويعاد الضمير على أحدهما وهنا يقع التباين ، وقد يرى الأغلبية عودة الضمير إلى الثاني من قبيل تَعَدُّد المحال إليه ، ومثل ذلك قوله تعالى في (الآية45) من سورة البقرة ﴿واسْتَعِينُوا بالصَبْرِ والصَلاَةِ ، وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاَّ على الخَاشِعِينَ﴾.

يرى الزركشي أنَّ الضمير في (إنها) عائد للصلاة فهي الأقرب[12] ، أمَّا **ابن عاشور** فيتساءل هو كغيره من المفسرين عن مرجعية الضمير في هذه الآية ، وأنَّه وقع خلاف فيما يعود الضمير إليه فوضع احتمالات ثلاثة[13]:

الأولى: قيل عائد للصلاة ، لأنها تصعب على النفوس وتحتاج إلى الصبر.

الثانية: قيل عائد إلى الصبر والصلاة معا ، والمأخوذة من استعينوا.

الثالثة: قيل راجع إلى المأمورات المتقدمة من قوله تعالى ﴿أنْكَرُوا نِعمَتِي﴾ إلى قوله ﴿اَسْتَعِينُوا بالصَبْرِ والصَلاَةِ﴾.

وكذلك ما وقع من تفسير للآية116 من سورة البقرة حين رُدَّ الضمير المرفوع "بقالوا" إلى جميع الفرق الثلاث ، وهي اليهود والنصارى والذين لا يعلمون ، في قوله: ﴿وقاَلُوا اتَخَذَ الله ولَدَا سُبحَانَهُ ، بَل لَهُ ما في السَموَاتِ وَالأرضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُون﴾ ، وهي إشارة من الله عزَّ وجل إلى ضلال آخر ، فقد اتفق فيه الثلاث السابقة[14].

إنَّ التفسير الإحالي لضمير العودة يعكس جهد المفسر في البحث عن الدَّلالة الرابطة بين معاني الآيات ، فلقد كان البحث فيما يعود إليه الضمير بحث في الترابط والتماسك الدَّلالي للنص والاختلاف في مرجعية الضمير يظهر ذلك ، والمرجعيات التي قدَّمها **ابن عاشور** تقوم على التفسير الدلالي الذي يعتمد على الاختلاف في فهم الآية، ولقد واجه العلماء صعوبة عند دراستهم للإحالة حسب مرجعية الضمير في النص القرآني ، فكما

---

[11]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج04 ، ص28.

[12]- نفسه ، ص30.

[13]- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، ج01 ، ص 479.

[14]- نفسه، ص683.

يكون المحال إليه واحدا معينا ، قد يأتي متعددا وهنا يبرز الإشكال ، إلى أي منها يعود الضمير، ولعدم الخلط لابُد للباحث من معرفة السياق اللغوي والاجتماعي المحيط بالنص وتبرز مرّة أخرى أهمية دراسة السياق وعلاقته بالنص القرآني.

3/ العطف:

يقسم العطف في القرآن الكريم عند غالبية المفسرين وعلماء القرآن إلى قسمين: عطف مفرد وعطف جملة ، ودلالته أن يتساوى المعطوفان في الإعراب ، ومن أمثلة عطف المفرد[15] ما ورد في سورة المائدة (الآية 06) من قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ ، وهنا عطف(أرجلكم) ليعلم أنها مثل الأولى (رؤوسكم) وأنها تشترك معها في فاعليتها ومفعوليتها، أما عن عطف الجملة فمثالها قوله تعالى[16]:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾المائدة(الآية67)

إنَّ ما يهمنا في هذا العنصر، أنّ لروابط الوصل في القرآن الكريم أدوارا قد تتجاوز حدود الجملة الواحدة ، لتصل أجزاء النص برمته ، ويقع ذلك حين يتعدد المعطوف عليه، مثلما نجده في (الآية 42) من سورة البقرة في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَلبِسُوا الحَقَّ بالبَاطِلِ وتَكتُمُوا الحَقَّ وأنتُم تَعلَمُون﴾ ، يقول **ابن عاشور** أنّ الآية جاءت معطوفة على جميع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ ، لأنَّ هذه الجمل كلّها لم يقصد أنَّ الواحدة منها معطوفة على التي قبلها ، بل على جميع ما تقدمها[17]..

وكذلك (الآية 118) من سورة البقرة:

﴿ وَقَالَ الذين لا يَعلَمُونَ لَولاَ يُكَلِّمُنَا الله أو تَأتِينَا آيةٌ ،كَذَلِكَ قَالَ الَذِينَ من قَبلِهِم مِّثلَ قَولِهِم تَشَابَهَت قُلُوبُهُم ، قَد بَيَّنَا الآيَاتِ لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾ ، يقول: إنّ الآية إنَّما جاءت معطوفة على آيات سابقة لها حسب تعدد المعطوف عليه ، فهنا عطف على قوله تعالى:

---

[15]- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج04 ، ص 102.

[16]- نفسه ، ص103.

[17]- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، ج01 ، ص470.

﴿ وقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾(الآية116) والمعطوف على قوله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(الآية 113) ، وذلك لمناسبة إشراك المشركين واليهود والنصارى في الأقوال والعقائد الضَّالة.. إلاَّ أنَّهُ جاء تقديم قول أهل الكتاب في الآية الماضية لأنهم ابتدءوا بذلك قبل النصارى في أيام مجادلتهم في تفاضل أديانهم[18].

يلاحظ في تفسير **ابن عاشور**- وغيره من المفسرين- للعطف بين الآيات ، أنَّ نظرته للنص/الخطاب القرآني كانت نظرة كلية ، فلقد تعدى بحثه عن مسببات العطف مستوى الجمل ، وعولج كرابط دلالي يشمل معظم الآيات داخل النص القرآني ، وليس على مستوى المفرد والمفرد ، أو الجملة الواحدة.

4/ الحذف:

لقد أدرك علماؤنا الأوائل أهمية الحذف في تحقيق التماسك بين عناصر النص ، وعني به الكثيرون، فمن النحويين نذكر: سيبويه وابن جني.. ومن البلاغيين الجرجاني والسكاكي، ومن علماء القرآن والمفسرّين الزركشي والسيوطي.. وبالرغم من اختلاف تفسيراتهم، إلا أنهم اجتمعوا حول رأي واحد وهو أنَّ المتكلم لا يلجأ إلى الحذف ليحدث خللا ما في النص، بل له جماليات وأغراض كثيرة .. ووضعت ضوابط وشروط عديدة تحكم هذه الظاهرة ، أولها وأهمها:

ضرورة وجود دليل على المحذوف، والذي يصوغه المتلقي انطلاقا من عوامل عديدة أهمها: سياق السورة، مقامها، موضوعها، المرجعية، التكرار.. وأهمية وجوده تكمن في

---

[18]- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، ج01 ، ص 688.

* وكما أشار الباحث محمد خطابي (ص190) إلى أنَّ موضوع المناسبة ، بين الآيات ، إنَّمَا جاء مُتَضَمَّناً عند الحديث عن علاقات العطف والإحالة الضميرية ، وغير ذلك ، ومثله ما ورد في تفسير الآية السابقة ، فلم يفرد لَهُ ، قسم خاص.

وكما تبيّن الآية ، السابقة إلى وجود علاقة جامعة بين أوجه التفسير وبين السياق الخارجي للسورة ، حيث رُدَّ تقديم أهل الكتاب عن قول النصارى للدّلالة الزمانية في ذلك الوقت ، فلقد كان حديث اليهود قبل حديث النصارى سابقاً ، والأمثلة عن ذلك كثيرة...

أنَّه يحقق المرجعية بين المذكور والمحذوف في أكثر من جملة ، كما يحقق التكرار باللَّفظ والمعنى ..[19].

إنّ للمتلقي دور مهم في عملية التكلم وعملية تلقي النص ، فهو الذي يستغل مكتسباته من مخزونه المعرفي في فك شفرة النص ، واستخراج ما فيه ، والحذف يقوم أساسا على ذلك كما سنرى في الجزء التطبيقي ، أما عن خاصية الحذف في الدراسات القرآنية ، فقد حدده **الزركشي** بدقة ، وصاغ معنييه اللغوي والاصطلاحي[20]:

فهو يعني لغة: الإسقاط ، ومنه حذفت الشعر إذا أخذت منه.

واصطلاحا: إسقاط جزء الكلام أو كلّه لدليل.

يفصّل **الزركشي** بعد ذلك ، في أوجه الكلام عن الحذف فيعرضه في خمسة عناصر: فائدته، أسبابه، أدلته، شروطه، ثم أقسامه، و يهمنا بالتحديد أقسام الحذف.

ينقسم الحذف عند **الزركشي** وعند غالبية العلماء إلى ثلاثة أقسام: "حذف الاسم ، حذف الفعل ، حذف الحرف" ، أما عن حذف الجملة وحذف القول ، فيصنفهما مع النوع الأول (حذف الاسم) ، وهذه بعض الأمثلة الموضحة:

* **حذف الاسم**: ومثل قوله تعالى في هذه الآيات[21]:

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ غافر (الآية 24) ومعناها " أي ساحر" ، حذف الاسم..

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً﴾الكهف(الآية 29) ، ومعناها " هذا الحق من ربكم".

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ النور(الآية 01) ومعناها " هذه سورة التي أنزلناها ".

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فصلت (الآية 46)

ومعناها " فعمله لنفسه و إساءته عليها".

---

[19]- صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، دار القباء ، مصر، ط1 ، 2000 ، ج02 ، ص120.

[20]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج03 ، ص 102.

[21]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج03: ص 136.

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ المرسلات (الآية 32) ، معناها " كل وحدة منها كالقصر"

*** حذف الجملة:** ومثل قوله تعالى[22]:

﴿ يُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ الأنفال (الآية 08) ، وتقديره: ما فعل ليُحِق الحقَ..

﴿ إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ البقرة (الآية60) ، وتقديرهُ: فضربَهُ فانفجر..

- وقد يكون المحذوف أكثر من جملة مثل قوله تعالى[23]:

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ يوسف (الآية45)

﴿ يوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يوسف (الآية46)

فإنّ التقدير: "فأرسلون إلى يوسف لاستعبرهُ الرؤيا ، فأرسلوه إليه لذلك فجاء فقال له: يا يوسف.." إنّ هذا الكل محذوف لأن قول (أرسلون) يدل لا محالة على المرسل إليه فثبت أنّ (إلى يوسف) محذوف..

*** حذف القول:** وهو كثير في القرآن [24]، ومنه:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ طه (الآيتين 80_81) ومعناها قلنا .. كلوا ، أو قائلين: كلوا .. وقوله تعالى:

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ البقرة (الآية 60) ، ومعناها: قلنا كلوا واشربوا ..

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾البقرة (الآية 63) ، ومعناها و قلنا .. خذوا ما أتيناكم.

*** حذف الفعل:** و من مثل قوله تعالى[25]:

---

[22]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج03، ص 194.

[23]- نفسه ، انظر الصفحات : 194- 195.

[24]- نفسه ص 196.

﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ﴾ النساء (الآية 162).

ومعناه: أمدح المقيمين الصلاة.

﴿ لَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ العنكبوت (الآية 63) ، معناها : الله خلقها ، أو خلقها الله.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾النور(الآية 36)

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾النور (الآية 37) ، أي: يُسَبِّحُهُ رجالٌ ..

*** حذف الحرف:** ومن نماذجه[26]: ومنهُ حذف الياء في قوله تعالى:

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ الفجر (الآية04) ، للتخفيف ورعاية الفاصلة ، وقوله تعالى:

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾يوسف (الآية 29)

أي : يا يوسف ، وقوله تعالى من سورة مريم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾(الآية04) ومعناها : يا رب ..

إنّ المهم في عرضنا لهذه النقاط عن الحذف في الدّراسات القرآنية ، هو توضيح أهميته في تحقيق التماسك بين عناصر النص ، فلقد أدرك العلماء ذلك حين تناولوا كتاب الله بالدّراسة والتفسير ، واجتهدوا في بحثهم عن المحذوف ودليله ، وتباينت آراؤهم المتعلقة ببعض الآيات استنادا إلى عوامل أهمها: السياق اللغوي والمقام وصلة الحذف بكل من المرجعية والتكرار.. فالمتلقي هو من يتحكم في استخراج هذه المعاني ويسهم في إكمال النص وملئ فراغاته ، ومن أحسن صور الحذف في القرآن الكريم ، الحذف في القصص .. ذلك أنّ القرآن الكريم يسرد أحداثا قصصية غير مفصلة ، ترد في شكل جمل مختصرة ، ويتم الاهتداء للمحذوف فيها عبر البحث عن الجمل الأساسية المعبرة

---

[25]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، انظر الصفحات: 198- 200.

[26]- نفسه، ص 213.

عنه والتي قد تتوفر في نص واحد أو قد يستدعى البحث عنها النظر في نصوص قرآنية أخرى..

5/ التكرير:

من خلال تتبع ظاهرة التكرير في القرآن الكريم ، نلتمس عند غالبية المفسرين وعلماء القرآن ، تعاملهم معه كرابط دلالي داخل النص ، **فالزركشي** على سبيل المثال ، يصنفه حسب أوجه عدَّة ، فمنه ما جيء للتأكيد والتقرير ، وفي مقام الوعيد والتهديد وزيادة التنبيه.. إلى غير ذلك ، على أن المهم هو أن يعالج التكرير انطلاقا من علاقة الآية السابقة بأخرى لاحقة مكررة لها في غير موضعها دلالة على التماسك النصي والترابط الدَّلالي ، فإذا طال الكلام وخشي تناسي الأول ، أعيد ثانية تطرية له وتجديد لعهده[27].

يفهم من هذا أنَّ التكرير يؤدي دورا مهما في تماسك معاني ودلالات النص المتباعدة ومثال عنه قوله تعالى في سورة الصافات[28]:

﴿ قَدْ صَدَّقتَ الرُؤيَا ، إنَّا كَذَلِكَ نَجزِي المُحسِنِين ، إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المُبِين ، وفَدَينَاهُ بِذَبحٍ عَظِيم﴾(الآيات105، 106، 107) ، إلى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجزي المحُسِنِين﴾(الآية110)

ومن سورة البقرة نجد (الآية 89) في قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾، ثم قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ ، وهذا تكرير للأول[29].

وعن الآية نفسها يقول **ابن عاشور** ، إن مفاد الجملة (لما جاءهم كتاب من عند الله...) وجملة (لما جاءهم ما عرفوا..) واحد ، وإعادة لَمّا في الجملة الثانية ، دون أن يقول تعالى: (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فجاءهم ما عرفوا..) ، ذلك إنَّما جاء قصد إظهار اتحاد مفاد الجملتين المفتتحتين بلَمّا ، وزيادة الرَّبط بين المعنيين ، حيث انفصل بالجملة الحالية .. فحصل بذلك نظم عجيب ، وإيجاز بديع وطريقة تكرير العامل مع كون المعمول واحد ، وتلك طريقة عربية فصحى[30].

---

[27]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج03 ، ص14.

[28]- نفسه ، ج03 ، ص 15.

[29]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج03 ، ص14.

[30]- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، ج01 ، ص602.

هذه باختصار بعض المظاهر الخاصة بعنصر التكرير في القرآن الكريم وان اتسمت بالإيجاز، إلا أنها تعكس بشكل واضح معالجتهُ باعتباره وسيلة ربط دلالية ، يربط أجزاء النص القرآني بمعانيه ، وسيأتي الجزء التطبيقي بأكثر التوضيحات في هذا السبيل.

6/ المناسبة:

لا يهمنا التأريخ لعلم المناسبة والتناسب ، بل المهم هو استظهار رأي العلماء المتقدم ، بأن القرآن الكريم على الرغم من تفاوت أوقات نزوله يشكل نصا واحدا ، كما عُبر عنه بالكلمة الواحدة لشدة تماسكه ، فلكل سورة من القرآن الكريم شخصية متفردة وملامح متميزة ومنهج خاص وأسلوب معين ، و مع ذلك فإنَّها تجتمع على الموضوع والغاية ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع وتحقيق هذه الغاية ..[31] ، فوحدة الموضوع سواء تعلق الأمر بالسور المكية أو المدنية ، تبيّن التماسك في القرآن الكريم ، ولقد كان وعي المفسرين بذلك كبيرا ، حين اهتمُّوا بالبحث في روابط التناسب وعلاقات ربط الآيات من جهة وعلاقات ربط السور من جهة أخرى ، وكذا نظام ترتيبها في المصحف الشريف ، وعلاقة الجملة الأولى بنظام السورة ، وعلاقة اسمها بالكلمات والحروف الواردة ضمنها .. إلى غير ذلك من العناصر الدالة على الدقة العلمية في البحث عن التماسك الدلالي للخطاب القرآني.

*** وجوه الإعجاز القرآني:**

يضع **السيوطي** في "معترك الأقران في إعجاز القرآن" أوجها عدَّة للإعجاز القرآني أهمها الوجه الرابع الذي يحدد في مناسبة آيات القرآن وسوره وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني ..[32].

إنَّ أهم صفة يختص بها القرآن الكريم التي تحقق له التماسك والالتئام والتضام هي المناسبة بين الآي ، ويعد الأمر الكلي لمعرفة وجوه النظم بين الآيات في جميع القرآن: "أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر مايحتاج إليه ذلك الغرض من مقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في مقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام

---

[31]- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، مصر ، ط 25 ، 1996 ، ج03 ، ص124.

[32]- جلال الدين السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تصحيح أحمد شمس الدّين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط01 ، 1988، ج01 ، ص42 ، 43.

واللوازم التابعة له.. هذا هو الأمر الكلي المعين على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإن فعلته بَيَّنَ لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية وفي كل سورة وسورة "[33].

اهتم **السيوطي** بعلم المناسبة ، وأفرد له قسما خاصا في مؤلفه أسرار التنزيل في جزء سماه "تناسق الدّرر في تناسب الآيات والسور" ، والمراد بعلم المناسبات معرفة الحكمة من جعل هذه الآية إلى جنب هذه ، والسورة إلى جنب تلك ، وارتباط الكلام، وإتحاد أوّله بآخره.. والمناسبة في اللغة تعني المشاكلة أي مشابهة الشيء للشيء ، ومرجعها الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما ، عام أو خاص ، عقلي أو حسّي أو خيالي ، أو للتلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول .."[34]

لقد أدرك المفسرون خاصية مهمة في القرآن ، وهي كما أنَّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه ، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ، وتم البحث عن أغراض السورة وعلاقاتها بالمقدمة أو الجملة الأولى (علاقة فاتحة السورة بالغرض) ، وكيف يحصل ترابط وتوافق الكلام إلى غاية ختام السورة (تناسب الفاتحة مع الخاتمة) ، وكيف يحصل الترابط والتناسب بين خواتم السورة السابقة وفواتح اللاحقة والذي يحقق الترتيب والتنظيم ذاته ، وما الحكمة من ترتيب السُّور في المصحف ، وما علاقة السورة الأولى بالكتاب ، هذه المظاهر وغيرها عولجت في هذا القسم من العلوم القرآنية وأشير إليها في النقاط التالية:

*** مناسبة فواتح السور وخواتمها:**

يضع **السيوطي** لهذا الجزء من علم المناسبات العنوان التالي"مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع" ، ويطنب في شرح الأمثلة ، يقول[35]:

أنظر سورة (ص) بدأها بالذكر وختمها به في قوله تعالى:

﴿ ص ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾(الآية1) ، ﴿ إن هُوَ إلاَّ ذِكرٌ لِلعَالمَِين﴾ (الآية87)

وفي سورة (ن) بدأها بقوله:

﴿ ما أنتَ بِنِعمَةِ رَبِكَ بِمَجنُون ﴾ ، وختمها بقوله : ﴿ إنَّهُ لَمَجنُونٌ ﴾ القلم(آية02 ، 51).

ومثال عن تناسب فاتحة السورة بخاتمتها ، سورة المؤمنون التي افتتحت بـ:

---

[33]- نفسه ، ص 49.

[34]- السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج2 ، ص 978.

[35]- السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج2 ، ص 985.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤمِنُونَ﴾ وختمت بـ: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾(آية117) ، فجاءت المناسبة هنا بين الفاتحة والخاتمة هي التضاد ، فوصف المؤمنون بالفلاح ، أمَّا صفة الكافرون فكانت عدم الفلاح .. فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة"[36].

وكما قد يرتبط التناسب بين فواتح السُّوَر بحسب ترتيب السور ضمن المصحف الشريف، وذلك مراعاة لمقتضيات ولوازم السياق الزمانية والمكانية ، مثل:

مناسبة أنّ سورة الإسراء افتتحت بالتسبيح ، وسورة الكهف بالتحميد، لأنَّ التسبيح حيث جاء ، مقدم زمانيا عن التحميد[37].

*** مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها:**

وفي ما يخص مناسبة فواتح السور لخواتم ما قبلها ، فإن **السيوطي** يرى أن المتأمل يدرك وبشكل واضح ، أنّ افتتاح كل سورة يكون في غاية المناسبة لما ختم به السورة التي قبلها.. كافتتاح سورة الأنعام بالحمد ، فإنَّه مناسب لختام المائدة من فصل القضاء ، وكافتتاح سورة فاطر بالحمد لله ، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله تعالى في سورة سبأ"[38]:﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ سبأ(آية 54)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فاطر(الآية01)

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح ، فإنَّه مناسب لختام سورة الواقعة بالأمر به: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾الواقعة(الآية 96)، ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾الحديد(الآية01) ، وكافتتاح سورة البقرة بقوله تعالى:

﴿الَم ، ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدَى لِلْمُتَقِين﴾ البقرة(آية01) ، إنَّمَا هي إشارة إلى الصراط في الفاتحة: ﴿أهْدِنَا الصِّرَاط ا المُسْتَقِيم﴾(آية06) .. وكأنهم لَمَّا سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب..

---

[36]- نفسه ، ص987 .

[37]- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ج01، ص39.

[38]- السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج2 ، انظر الصفحات : 985 ، 987.

أمَّا **ابن عاشور** ، فيفسر لفظ (الكتاب) الوارد في الآية الأولى من البقرة ، بالسور المتقدمة التي نزلت قبل سورة البقرة (لأنَّ كل ما نزل من القرآن فهو المعبر عنه بأنه الكتاب وينظم إليه ما يلحق به)[39].

إنَّ ما تقدم يشير إلى أنّ التفسير القرآني لم يكن خاليا من التفكر والتدبر في معاني الآيات ، فلم يقتصر تفسير ابن عاشور على الإحالة للفظ الكتاب السابق فقط ، بل ربطه بجل الآيات والسور التي تشير إليه ، حتى أنَّه قد يعود إلى اللاحق المترقب نزوله كذلك ، فجاء تفسير التناسب في هذه الآية دلاليا يجمع بين مناسبة الآية وما يربطها بالسور السابقة واللاحقة لها أيضا..

*** مناسبة افتتاح السورة بالحروف:**

يبيّن المفسرون في هذا العنصر من المناسبة ، أنّ افتتاح السور بالحروف المقطعة إنما يناسب غالبية الكلمات والحروف الواردة فيها "فما كان لورود ﴿آلم﴾ أن يكون في موضع ﴿آلر﴾ ، ولا ﴿حم﴾ في موضع ﴿طس﴾ .. ذلك لأنَّ كل سورة بدأت بحرف منها فإنَّ أكثر كلماتها وحروفها مماثل لَهُ "[40] ، **فسورة ق** مثلا:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ، بدأت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف: (القرآن ، الخلق، القرب ، الرقيب ، المتيقين ..)

سورة يونس: ﴿ آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ، تكرر من الكلم الواقع فيها الراء مائتا كلمة أو أكثر.

سورة البقرة: ﴿ آلم ﴾ ، إشارة إلى البدء و الوسط و النهاية:

البدء (بداية الخلق) ، النهاية (نهاية الخلق) ، والوسط هو المعاش ، فَجُمِعَت فيها المخارج الثلاث :الحَلق (البداية)، اللسان (النهاية) ، الشفتين (الوسط) ، وكل سورة افتتحت بها فهي مشتملة على الأمور الثلاثة.

سورة الأعراف: ﴿ آلمص ﴾ ، زيد فيها الصاد لما فيها من شرح القصص ، وقيل أيضًا يعود إلى معنى الآية الثانية: ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

سورة الرعد: ﴿ المر ﴾ ، لأجل قوله تعالى:

---

[39]- الطاهر بن عاشور ، تفسير التحرير والتنوير ، ج01 ، ص 219.

[40]- السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ج 01 ، ص 989.

﴿ اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾(الآية02) وذكر فيها الرعد والبرق وغيرهما[41].

وإضافة إلى هذا العنصر ، يشر **السيوطي** إلى خاصية جد مهمة ، تتعلق بنظم القرآن وائتلافه ، وهي تناسب افتتاح السور بالحروف مع أن يذكر بعدها ما يتعلَّق بالقرآن أو الكتاب[42] ، فجل السور المفتتحة بالحروف ، يليها ذكر الكتاب المنزه ، فذكر في سورة البقرة في الآية الثانية ﴿ ذَلِكَ **الكِتَابُ** لا ريب فيه ﴾ ، وفي آل عمران:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ **الْكِتَابَ** بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ ، وفي سورة الأعراف:

﴿ **كِتَابٌ** أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

*** معرفة أسماء السُّوَر وعلاقاتها بالمضمون:**

لقد أدى البحث في أسماء السور -عند غالبية المفسرين- اللجوء إلى استظهار المضمون الكلي للموضوعات الخاصة بها ، واختلف معظمهم في تأويل ذلك ، وقياسا للتقليد السائد (عند العرب) في أن تسمى الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وأن تسمى على القصة التي ترويها أو الكلمة المكررة أو على الجملة الأولى.. جرت تسمية سور القرآن ، فسميت أسماء السور وفقا للقصص –الموضوعات- التي تحملها [43] ، ومن بعض الأمثلة على ذلك:

- تسمية **سورة البقرة** ، لقرينة قصة البقرة المذكورة فيها ، في قوله تعالى:

﴿ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا **بَقَرَةٌ صَفْرَاء** فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾(الآية 69)

- تسمية **سورة الأنعام** ، لما ورد فيها تفصيل لأحوالها ، من قوله تعالى:

﴿ وَقَالُواْ هَذِهِ **أَنْعَامٌ** ، وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ **وَأَنْعَامٌ** حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا **وَأَنْعَامٌ** لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (الآية138)

- تسمية **سورة المائدة** ، التي لم يرد ذكر آداب المائدة في غيرها ، من قوله تعالى:

---

[41]- السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ج 01، ص: 989 ، 991.

[42]- نفسه ، انظر: ص 990 ، 991.

[43]- السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ج 01، ص177.

﴿ حرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْن ..﴾ (الآية03)

﴿ يسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(الآية04)

- تسمية سورة **النساء** ، لما تردد فيها الشيء الكثير من أحكام النساء ، يقول الله تعالى: ﴿ وإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ **النِّسَاء** مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾ (الآية 03) ، أنظر الآيات: 04-19-22-24-34-43-127.. من نفس السورة.

وكذلك ما تختص به السور التي تسرد القصص الخاصة بالأنبياء ، مثل: سورة هود الذي تكرر ذكر اسمه فيها في أربعة مواضع وكان التكرار من أقوى الأسباب لتسميتها بهذا الاسم ..[44] ، وكذلك الشأن في سورة نوح ويونس وإبراهيم يوسف .. التي سميت كل منها باسم النبي التي تقص قصته ، وقد يكون موضوع السورة قصة أقوام كذلك ، مثل سورة بني إسرائيل ، وأصحاب الكهف ، سبأ ..[45]

*** تناسب ترتيب السُّوَر:**

ينوه **السيوطي** إلى خاصية مهمة وهي علاقة تناسب السور في القرآن بترتيبها ، حيث يرى أنّه يتم ترتيب السور في المصحف لأسباب عدَّة ، من بينها توازن واتفاق أغراض السور بعضها ببعض[46] ، والجدول التالي يوضح كيف ترتبت أربع سور مدنية (**البقرة** ، **آل عمران** ، **النساء** ، **المائدة**) حسب تناسب أغراضها ومقاصدها:

السورة	ترتيبها التسلسلي	أغراضها و مقاصدها
		-بمنزلة إقامة الدليل على الحكم.

[44]- السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ج01 - 177، 178.

[45]- نفسه ، ص 178.

[46]- السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ج01 ، ص987 ، 989..

البقرة	**الأولى**	-الحج فيها مشروع وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه. -خطاب اليهود فيها أكثر، فالتوراة أصل والإنجيل المذكور في آل عمران فرع لها. -ذكر فيها جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود عند هجرته إلى المدينة.
آل عمران	**الثانية**	-بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم. -الحج فيها أصبح واجبا لمن استطاع. -خطاب النصارى فيها أكثر(الإنجيل). -ذكر فيها جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم للنصارى بعد ذلك.
	نتيجة	**البقرة تسبق آل عمران وتتكامل معها وتتآلف أغراضهما.**
النساء	**الثالثة**	-تضمنت أحكام الأنساب التي بين الناس. -افتتحت السورة بقوله تعالى:﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، فتناسب افتتاحها مع غرضها ، وأصبحت وكأنها الآية المجملة وما بعدها إنَّما جاء تفصيلا لها. -تحدثت السورة عن خلق آدم عليه السلام ، ثم خلق زوجه منه ، وأحكام النكاح ، ومحرماته والمواريث المتعلقة بالأرحام.
المائدة	**الرابعة**	-تضمنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدِّين ، وسُميت سورة العقود ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أُوفُوا بالعُقُودِ﴾. -هي سورة التكميل ، لأنَّ فيها تحريم الصيد على المحرم وتحريم الخمر ، وعقوبة السارق وإحّلاّل الطيبات ، وأحكام الوضوء والتيمم...

رأينا كيف حصل الترتيب بين هذه السور من أحسن ترتيب ، وكيف تناسبت أغراض السور السابقة باللاحقة ، من خلال تناسب الغرض الإجمالي للسورة.

*** مناسبة فاتحة الكتاب للقرآن:**

إنَّ نوعا خاصا من الابتداء الحسن يسمى "براعة الاستهلال" ، وهو أن يشمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله .. أما الذي يهمنا في هذا العنصر، ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من"براعة الاستهلال" ليس على مستوى بنيتها النصية فقط بل على مستوى الخطاب أو النص القرآني مجملا ، فهي مطلع القرآن ، وعليه جاءت مشتملة على جميع مقاصده لأنَّه افتتح بها فنبّه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية من براعة الاستهلال[47] ، ويقول **السيوطي:**

إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف ، واختص أوله بالحرف السابع الذي هو(الحمد) ، ولما كان كذلك افتتح الله به القرآن في الفاتحة: ﴿ الحمدُ لله رَبِّ العَالَمِين ﴾ ، وشملت آياتها الباقيات على بقية الأحرف بدءا بالحمد ، ثم حرفي الحلال والحرام (الدنيا والآخرة) والثالثة على حرفي (الأمر والنهي) ، ثم المحكم ، ثم المتشابه.. حسب الترتيب فهذا دليل على اشتمال فاتحة القرآن على جميع المقاصد والأحكام التي اشتمل عليها القرآن الكريم بمختلف سوره[48] ، ومن ذلك:

مناسبة ابتداء البقرة (بآلَم) وهو أحسن ما قال ، حيث أنَّه لَمَّا ابتدأت الفاتحة بالحرف المحكم ، ابتدأت البقرة بما يقابله .. وهكذا إلى غاية نهاية السُّوَر[49].

يتواصل إذن الإعجاز القرآني ، بدءا من التناسب بين فاتحة السورة الواحدة وخاتمتها إلى فاتحة السورة وخاتمة ما قبلها وصولا إلى تناسب فاتحة الكتاب والكتاب كلّه ، ثم تناسب فاتحة الكتاب وخاتمته ، أي بين السورة الافتتاحية والسورة الختامية.. فقد بحث المفسرون عن الحكمة من ختم القرآن الكريم بالمعوذتين بعد أن افتتح بالفاتحة ، يرى **السيوطي** أنّ خواتم السور مثل الفواتح في الحسن ، وتأتي متضمنة لمعاني البديع مع إيذان السامع بانتهاء الكلام .. فما الحكمة من ختم القرآن العظيم بالمعوذتين..؟"[50].

---

[47]- السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ج01 ، ص58.

[48]- نفسه ، الصفحات : 56 ، 57.

[49]- نفسه ، ص57.

[50]- السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ج01 ص58.

يتعلق الحال بأمرين ، أما الأول فهو أنَّ القرآن أعظم نعم الله على عباده ، والنعم مظنَّة للحسد لذا ختم بما يطفئ الحسد ، ويتعلق الثاني بقول الرسول الكريم:
« لقد افتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها واختتم بسورتين لم ير مثلهما ، ومنه جمع حسن الافتتاح والاختتام في الكتاب العزيز » ، فالقارئ يفتتح القرآن بالتعوذ ثم الحمد والشكر لله على نعمة الدِّين ، ثم يختتم بالمعوذتين لتحصل الفائدة ، بالاستعاذة بالله عند أوَّل القراءة وعند آخرها ، فتشتمل على طرفي الابتداء والانتهاء..[51]

نستخلص إذن ، كيف أنّ لعلم التناسب أثر بالغ في الدِّراسة النصية القرآنية ، وقد طرح بمنهج دقيق يقارب بشكل واضح المقترحات النظرية النصية ، فلم يقتصر المفسرون وعلماء القرآن على المظاهر الشكلية والدَّلالية الخاصة بمستوى السطح ، بل تجاوزوا ذلك إلى نظرة شاملة للقرآن الكريم وكأنَّه كلمة أو سورة أو آية واحدة ، وهو ما وجدناه في علم المناسبات بدءا من التناسب في السورة الواحدة إلى الثنائية القبلية والبعدية وبعدها تناسب الكلمات والحروف مع مواضيع السور وأسماءها وتناسب ترتيب السور ، وصولا إلى افتتاح الكتاب وتناسبه مع سوره الختامية ، فكما اهتم النصيون بالخطية الجملية التي تتحكم في تنظيم الخطاب وفي تأويله بدءا من الجملة الأولى أو الكلمة الأولى في بحثهم عن موضوع الخطاب أو التعريض*، باعتبار أنَّ كل جملة من نص ما تشكل جزءا من توجيه متدرج يخبرنا عن كيفية إنشاء تمثيل منسجم ، لم يخف ذلك على المفسرين وعلماء القرآن حين اتبعوا في بحثهم طرقا عديدة للوصول إلى موضوع الخطاب القرآني ، مثل تكرير أسماء الأنبياء، أو تكرير القصص (قصة البقرة ، أصحاب الكهف) ، كما تفطنوا لدور الجملة الأولى التي تتحكم في اتساق الخطاب وانسجامه وفي خطية تأويله ..

---

[51]- نفسه ، انظر: ص 60.

*- مفهوم التعريض حسب الباحثان ، يول و براون... يماثل مفهوم موضوع الخطاب أو البنية الكبرى حسب فان ديك ، انظر تحليل الخطاب الصفحات: 87، 96.

قائمة المصادر والمراجع

1- بن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، تونس ، ط01 ، 1984.

2- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، منشورات المكتبة العصرية ، صيد ، بيروت/لبنان ، ط01 ، 1976.

3- السيوطي جلال الدين ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تصحيح أحمد شمس الدّين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط01 ، 1988.

4- الفقي صبحي إبراهيم ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، دار القباء ، مصر، ط1 ، 2000.

5- قطب سيد ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، مصر، ط 25 ، 1996.